عبدالله بلخير في شبابه*

بقلم: حسين بافقيه**
السعودية

حينما نستحضر اسم الشاعر عبدالله بلخير، فإننا بذلك نستحضر جزءا كبيرا من ذاكرة جزيرة العرب والمملكة العربية السعودية، وبخاصة السنوات الأولى للنهوض والتقدم التي كانت في انتظار الدور الذي قام به ذلك الشاب الذي كان للتو قد جاوز ميعة الصبا، ليصبح علامة مهمة في تاريخ الحركة الثقافية، وليزاحم بفورته الثقافية، وإحساسه بالعروبة التي ملكت عليه كيانه، هامات الرواد الأوائل للأدب والثقافة في الحجاز.

لم يكن عبدالله عمر بلخير قد جاوز الثانية والعشرين من عمره، حينما أصدر مع محمد سعيد عبدالمقصود كتابهما المفصلي «وحي الصحراء: صفحة من الأدب العصري في الحجاز» ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ليغدو ذلك الكتاب المفصل الثالث في تاريخ الحركة الثقافية في المملكة، بعد «أدب الحجاز» لمحمد سرور الصبان، و «خواطر مصرحة» لمحمد حسن عواد، وليعبر هذا الكتاب الذي ضم طائفة من شعر أدباء الحجاز ونثرهم عن مرحلة جديدة من عمر الثقافة في البلاد . فقد صدر «وحي الصحراء» بعد نحو ثلاث سنوات من توحيد البلاد رسميا، تحت اسم «المملكة العربية السعودية» وفي مرحلة كانت النويات الأولى للمؤسسات الحكومية قد تألفت، ومارس المجتمع الأهلي عبر ممثليه من المثقفين تأسيس مؤسساتهم ومنتدياتهم الإعلامية والثقافية، كصحيفة «صوت الحجاز» و«مجلة المنهل» التي تزامنت مع صدور الكتاب ولتقرب الوحدة السياسية أبناء الأقاليم المختلفة، وتجعلهم يشعرون شيئا فشيئا بمعنى الدولة والوطن وغيرهما من المفاهيم السياسية والوطنية الجديدة حينئذ.

ويلفت الانتباه أن عبد المقصود وبلخير ضما في «وحي الصحرا» الاتجاهات الأدبية المختلفة، التي كان يموج بها الواقع الأدبي في الحجاز، وكأنهما يريدان من هذا الكتاب أن يكون ممثلا حقيقيا للأدب الحجازي، الذي كان أقطابه وقتذاك يتصارعون حول الشعر المهجري، والجديد والقديم، وتجاربهم الجديدة في القصة القصيرة والرواية، ليعكس هذا الكتاب حالة من الوفاق العام، على ذلك النحو الذي ساق إلى جانب الشعر العمودي قصائد من الشعر المنثور، والموشحات، وتجارب في القصة القصيرة،ودراسات أدبية، ومقالات صحفية، ووقفات نقدية، وليجمع - وفي إطار واحد- أحمد الغزاوي ومحمد حسن فقي وأحمد السباعي وعزيز ضياء وحسن كتبي وأحمد العربي ... وغيرهم من الأجيال الأدبية المتعاقبة، وقد كان معظمهم متخاصمين على صفحات «أم القرى» و «صوت الحجاز» !

والأغرب أن تجتمع كل تلك الأسماء تحت اسم شائع،حينذاك في الأدب العربي، وهو «الأدب العصري»، وأن يؤكد هذا الانتماء إلى «العصرية» المقدمة التي خص بها محمد حسين هيكل - أحد رواد الفكر الليبرالي في الثقافة العربية - هذا الكتاب، ليقدمه إلى القراء العرب، نموذجا لما تضج به «الصحراء» من تحولات حادة، لم تكن معهودة فيها، قبل عقود يسيرة من الزمان، وأن يكون «وحي الصحراء» النموذج الأول لرغبة لفيف من أدباء المملكة في «تصدير» أدبهم وإبداعهم إلى الخارج، هذه الرغبة التي تحققت على يد محمد سعيد عبدالمقصود، وقد كان في تلك الأيام، أحد الأدباء المهمين في الحجاز، قبل أن يوافيه القدر، فيموت في مرحلة مبكرة .وشريكه في الكتاب الشاعر الشاب عبدالله بلخير الذي كان للتوِّ قد تخرج في مدرسة الفلاح الثانوية، وأعد العدة لكي يتلقى دراسته الجامعية خارج المملكة.

عبدالله بلخير يقف مترجماً في اللقاء التاريخي الشهير بين الملك عبدالعزيز وتشرشل

ويلفت الانتباه في مجموعة القصائد التي ضمها «وحي الصحراء» من شعر عبدالله بلخير، ذلك الوعي العروبي والقومي المبكر، الذي هيمن على شاب صغير السن، كان وقت إنشاء قصائده طالبا في مدرسة الفلاح تشغله قضايا قومية كبرى، بدت واضحة في شعر البدايات، الذي كان يتكئ لغويا على التراكيب اللغوية الإحيائية، التي أتاحت لذلك الشاب أن يصوغ رؤيته الشعرية في بناء شعري، نأى به عن ترسم الموجة الشعرية الجديدة التي كانت مسيطرة على ثلة من شعراء الحجاز الذين انتموا إلى الشعر الوجداني «الرومانسي» معبرين عن مواقف فردية ذاتية، هي من السمات الرئيسية للشعر الرومانسي، في حين انشغل بلخير بالقضايا الكبرى التي كانت ترين على المشرق العربي، وبخاصة قضايا الوحدة العربية، والقومية، والبحث عن الرموز التاريخية التي يمكن أن تحقق طموح شاعر شاب يحلم بوطن عربي كبير.

ولعل هذا ما يفسر عددا من القصائد التي قالها بلخير، وهو على مقعد الدرس، في الملك عبدالعزيز، بصفته رمزا من رموز الوحدة العربية التي يستشرفها في الأفق القريب.

ولم يرد الشاب عبدالله بلخير، وهو يؤمن بالعروبة، أن يزج شعره في دهاليز النزاعات السياسية، ولو شاء لتأبت عليه قريحته التي تربت على عشق كل ما هو عربي. كان ذلك وقد اشتد النزاع بين المملكة ومصر،بسبب حادث «المحمل»وبلغت الخصومة مداها، وقد آلمت قلب الفتى العربي، ويشاء الله أن يؤدي شعيرة العمرة في سنة ١٩٥٣هـ، - أي في العشرين من عمره - الثري طلعت حرب، مؤسس بنك مصر، وأحد بناة العروبة في وادي النيل، وانتهز عبدالله بلخير الحفل الذي أعده وزير المالية، آنذاك، عبدالله السليمان لطلعت حرب، ليلقي فيه قصيدة، لم يخل معجمها الشعري من إيمان بالعروبة والوحدة:

يا حمام الحمى تغن بشعري
في ربا الروض بكرة وأصيلا
وترفق بمغرم هاجه الوجـ
ـد وأمسى من الغرام عليلا
واتخذ منبرا على فنن الدو
ح وغرد بين الزهور قليلا
وارفع الصوت حين تسجع حتى
يَردَ الصوتُ «دجلةً» و«النيلا»
علَّ مصراً تصغي فتسمع ماذا
في ربوع «الحجاز» أمسى مقيلا

ولأنه شاعر حقيقي، فلم يرد لشعره أن يخلو من المفاجأة، وأن يصدم ولو إلى حين مستمعيه، وهم ما هم، وفي ظرف تاريخي صعب يمر به البلدان، فكانت أبياته التالية التي جاءت وكأنها مؤزمة للموقف السياسي بين البلدين:

عجب موقف الكنانة منا
ما عرفنا لسره تعليلا
قرب الأبعدون منا وصدت
وتمادت. فما عسى أن نقولا؟
أجميل بها الصدود؟ وحتا
م؟ أما آن للجفا أن يزولا

ليصل الشاعر الشاب إلى ما يشبه «التراقي»شعريا، ويصعد النظرات إليه، بهذا القسم الجليل:

قسما بالذي برأ الكون لا يمـ
ـلك فرد سواه فتيلا

وينتظر طلعت حرب ومن معه، وكذلك مضيفوه،ماذا سيكون جواب القسم الذي ساقه الشاعر الشاب! وليغدو هذا البيت هو القصيدة بكاملها، وهو جماع الموقف الفكري والفني لشاعر يتنفس في شعره عروبة وقومية:

قسما بالذي برأ الكون لا يمـ
ـلك فرد سواه فتيلا
لو مشت «مصر» نحو «مكة» شبرا
لمشت «مكة» إلى «مصر» ميلا

عبدالله بلخير يقف خلف الأمير فيصل وجوار الأمير خالد أثناء زيارتهما لمحطة الإذاعة البريطانية بلندن عام ١٩٤٦م.

قد صبرنا، وسوف نصبر حتى
يقضي الله أمره المفعولا
وإذا ما الحبيب أسرف في الهجر
فقل للمحب : صبرا جميلا

وتعود العلاقة بعد ذلك قوية متينة بين المملكة ومصر، وينسى الجميع قصيدة الشاعر الشاب التي عاد طلعت حرب بها فرحا جذلا، حاملا من خلالها مشاعر أهل الحرمين إلى أرض الكنانة!

وفي العام نفسه - أي عام ١٣٥٣هـ، ١٩٣٥م، احتفل أدباء الحجاز بوفد «الكشافة العراقية» الذي زار المملكة، وكانت زيارته حدثا قوميا كبيرا، شد الحجاز ونجد إلى الفرات ودجلة، وليقف الشاب ذو العشرين ربيعا، منشدا قصيدة تضج بروحها الوثابة، شعرا صادقا من فؤاد هام بالعروبة:

«شبه الجزيرة» موطني وبلادي
من «حضرموت» إلى حمى «بغداد»
أشدو بذكراها وأهتف باسمها
في كل جمع حافل وأنادي
منها خلقت وفي سبيل حياتها
سعيي وفي إسعادها إسعادي
كل له في من يحب صبابة
وصبابتي في «أمتي» و «بلادي»

هكذا تمضي القصيدة شعرا يوسع معاني العروبة جسا ولمسا،ويتفنن الشاعر الذي قد غادر مقاعد مدرسته الثانوية حديثا، في تثوير مشاعر سامعيه، حتى كأنه لا يدع القلوب في مكانها ! يورد عبدالله بلخير بعد هذا الحدث العروبي الضخم بخمسين سنة، ما يجلي السياق الذي قيلت فيه هذه القصيدة، بعد أن أنشد المقطع السابق بقوله:«فضج المحتفون بهذه التحية من فتى شاب لا تزال ملامح الفتوة عليه غضة طرية، وصاح زعيم الشباب السوري فخري بك البارودي، وقد اهتز لهذه الأنفاس يشمها في بطحاء مكة وهو يصيح : أعد ... أعد ... أعد ... وكان قد وقف على كرسيه مختلجا متأثرا متحمسا، ذلك أن الشاعر البارودي هو صاحب الأنشودة الوطنية العربية المشابهة لأنفاس قصيدتي، والتي يبدؤها بما شاع وذاع بعد ذلك وملأ الأسماع ولم أكن قد سمعتها يومئذ:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

وتسير القصيدة الشابة ، هينة لينة، مؤلفة بذلك جغرافية شعرية، تحتل قسماتها كيانات العرب الكبرى التي تحتل من الشاعر سويداء قلبه،من خلال ما تبعثه تلك الكيانات الجغرافية من خيال رمزي يمثل الذاكرة المسكونة بالعروبة وأطيافها:

وتخللت «شبه الجزيرة» صيحة
هي «حضرموت» تئن في الأصفاد
هي أخت «مكة» و «العراق» و «جلق»
أم الحضارة حين مبعث «عاد»
مهد الأولى ضرب الكتاب ببأسهم
مثلا وقوة بطشهم في النادي